سياسة الإمبراطور البيزنطي ثيوفيل "ثيوفيلوس"

تجاه الخلافة العباسية

٨٢٩ - ٨٤٢م : ٢١٤ - ٢٢٧ هـ

د. محمد محمد مرسي الشيخ

الأستاذ المشارك بقسم التاريخ

بكلية العلوم الاجتماعية

قامت في بيزنطة في مطلع العقد الثالث من القرن التاسع الميلادي (الثالث الهجري) أسرة حاكمة جديدة هي **الأسرة العمورية**، التي أسسها الامبراطور ميخائيل الثاني (٨٢٠ – ٨٢٩م)، وهي الأسرة التي تنتسب إلى مدينة عمورية في قلب آسيا الصغرى، وأعظم مدن ثغر أنا توليا[١]. وعلى الرغم من أن أحوال بيزنطة كانت قد ساءت في الفترة السابقة في الشئون السياسية والعسكرية والدينية، وتأرجح الأباطرة بين تأييد عبادة **الصور والأيقونات** ومناهضتها[٢]، إلا أن هذه الأسرة الجديدة لم تمنح بيزنطة ما كانت تطمح إليه من القوة والمنعة والاستقرار لاسيما في الشئون الدينية والعسكرية.

حقيقة خمدت الفتن الدينية في عهد ميخائيل الثاني، وتوقف اضطهاد عبّاد الصور المقدسة، وعاد المنفيون من أنصارها، غير أنه لم تجر إعادة عبادة الصور المقدسة ذاتها، لأن الإمبراطور ميخائيل الثاني آثر اتخاذ اتجاه وسط فلم يعترف بالمجامع الدينية التي أيدت أو ناهضت عبادة الصور المقدسة[٣]، بل منع كل مايجري من المناقشات حول موضوع الأيقونات محاولا تجنب اندلاع الفتن الدينية وإحداث

---

(١) Ostrogorski: Hist. of the Byzantine state. P. 185.
Bury: Eastern Roman Empire. P. 79, P. 221

(٢) تفجرت مشكلة مناهضة عبادة الصور والأيقونات أو ما عرف باللاايقونية على عهد الإمبراطور ليو الثالث الأيسوري (٧١٧ – ٧٤١م) أنظر: Camb. Med. Hist. V. 4, PP. 9—10

(٣) من المجامع المؤيدة مجمع نيقية (٧٨٧م) الذي عقدته الإمبراطورة أيرين، ومن المناهضة مجمع القسطنطينية (٧٥٣ – ٧٥٤م) الذي عقده قنسطنطين الخامس لتأييد سياسته في مناهضة عبادة الصور والأيقونات أنظر: Ostrogorski: op. cit. P. 152, P. 159
Camb. Med. Hist. V. 4, PP. 13—14

الاضطرابات في الدولة(١) . ومع ذلك اندلعت ثورة عارمة في آسيا الصغرى بقيادة جندي يدعى **توماس الصقلبي** من زملاء الإمبراطور القدامى ، كانت ثورته مزيجا من الثورات الدينية والإجتماعية ، فقد أعلن توماس أنه زعيم عباد الصور المقدسة ، وأنه المدافع عن الفقراء والمساكين ، وألبس ثورته رداء اجتماعيا خطيرا ، فالتف حوله جموع من الكادحين والدهماء ، ومن أحنقهم سوء الأحوال الاقتصادية في الامبراطورية . وتشير الروايات إلى أن توماس هذا كان قد لجأ أكثر من مرة إلى الشام فأقام وسط المسلمين فرارا من السلطات البيزنطية ، وامتدت إقامته في المرة الأخيرة بين المسلمين نحو عشر سنوات (٨٠٣ – ٨١٣ م) زمن الامبراطورين نقفور الأول وميخائيل الأول(٢) ، ولهذا فقد تألفت جموع جيش توماس من العرب والفرس والأرمن والكرج وسائر شعوب القوقاز .

وكانت الخلافة العباسية على عهد **المأمون** (١٩٨ – ٢١٨هـ / ٨١٣ – ٨٣٣م) لاسيما الفترة الأولى من عهد هذا الخليفة تمر بمرحلة قلاقل واضطرابات داخلية لاتسمح بتوجيه القوة الرئيسية فيها لحرب بيزنطة ، ولهذا حاول المأمون الإفادة من ثورة توماس قدر استطاعته فعقد معاهدة معه تقضي بتحالفهما ضد الإمبراطور ميخائيل الثاني للاشتراك في طرده من الحكم ، وأن يعترف المأمون بتوماس إمبراطورا على بيزنطة مقابل تنازل الأخير عن بعض المواضع على الحدود المشتركة بين المسلمين والبيزنطيين على أن يظل توماس مواليا للخليفة العباسي ، وتم تتويج توماس إمبراطورا على يد البطريرق في أنطاكية الخاضعة للخلافة العباسية بموافقة المأمون بطبيعة الحال(٣) .

ونجحت ثورة توماس في آسيا الصغرى التي كانت تربة خصبة لمثل هذه الحركات والثورات لما اشتهرت به من اختلاط عناصرها ، ووجود عدد كبير من الصقالبة بين

---

(١) Ostrogorski: op. cit. P. 181

(٢) فازيلبيف : العرب والروم ص ٣٥ Bury: op. cit. P. 48 (note 1),

(٣) Ostrogorski: op. cit. P. 182

فازيلييف : العرب والروم ص ٣٧ . و Bury: op. cit. P.88

سكانها وأغرى ذلك توماس بالزحف إلى القسطنطينية وفرض الحصار عليها في ديسمبر سنة ٨٢١م أي في السنة الأولى لحكم ميخائيل الثاني ، واستمر الحصار أكثر من عام لكنه انتهى بانهيار قوة توماس وفراره ثم وقوعه في النهاية في يد الإمبراطور الذي نكل به وعذبه حتى الموت [١] ، غير أن ماحدث من تأييد الخلافة العباسية لقائد هذه الثورة ومحاولة التدخل في شئون بيزنطة قد أرهص باندلاع مرحلة جديدة من الصراع بين المسلمين والبيزنطيين ، حين تتهيأ الفرصة لذلك وتسنح الظروف ، وخاصة وقد استولى المسلمون في الغرب بعد سنوات قليلة على جزيرتي كريت وصقلية . ففي عام ٨٢٧م (٢١٢هـ) نزل الأندلسيون بقيادة أبي حفص عمر بن شعيب إلى كريت [٢] ، فأعملوا فيها السلب والنهب خاصة بعد أن بعثوا بسفنهم قبل ذلك وطلائع جيوشهم فعرفت المكان وخبرته جيدا [٣] ، ثم اختاروا موضعا على الشاطيءالشمالي للجزيرة فأقاموا به حاضرة ملكهم ، وأحاط أبو حفص المدينة بخندق عميق فاتخذت منه المدينة اسمها المعروف Chandax أوكنديا Candia ، ولم يلبث الأندلسيون أن سيطروا على أنحاء الجزيرة وأخضعوا سكانها . أما صقلية فقد بعث زيادة الله بن الأغلب أسطوله بقيادة القاضي أسـد بن الفرات سنة ٨٢٧ (٢١٢هـ) ، فنزلت بالجزيرة ونجح الجيش الاسلامي في الاستيلاء على بعض معاقل الجزيرة ومدنها ، ودخل المسلمون بالرم سنة ٨٣١ ، (٢١٦هـ) [٤] بعد وفاة ميخائيل الثاني وقيام ثيوفيل في الحكم ، وكانوا قد فرضوا الحصار عليها طيلة عام ، ثم راحوا يفرضون سلطانهم على أنحاء الجزيرة شيئا فشيئا حتى دانت لهم ، وانهارت سيطرة بيزنطة على البحر المتوسط ، وتأكدت سيادة المسلمين على ذلك البحر [٥] .

---

(١) فاز يليييف : نفسه ص ٤٨ Bury: op. cit. P.106,

(٢) الكندي : تاريخ الولاة والقضاة ص ١٨٠ .

(٣) فاز يليييف : العرب والروم ص ٥٥ .

إبراهيم أحمد العدوي : الدولة الإسلامية وامبراطورية الروم ص ١٠٨ ، وانظر :

Bury: op. cit. P.88

(٤) Ostrogorski: op. cit. P.185

(٥) Marcias: La Berberic Musulmane et L' Orient ou Moyen Ages. P. 215 (Paris 1946)

تتابعت هذه الأحداث خلال عهد أول أباطرة الأسرة العمورية ميخائيل الثاني حتى توفي سنة ٨٢٩م (٢١٤هـ) تاركا العرش لابنه ثيوفيل . وإذ كان ميخائيل الثاني أميا لا يعرف من القراءة أو الكتابة شيئا ، فظا غليظ القلب جاف الطبع ، فإن ابنه ثيوفيل تلقى قدرا طيباً من التعليم واشتهر بعلو ثقافاته وولعه بالعلوم والفنون وتأثره بالثقافة الإسلامية إلى جانب معرفته الطيبة بثقافات العالم البيزنطي في ذلك الوقت (١) ، ونمت وتطورت حول اسمه كثير من الروايات والقصص الخيالية والأساطير (٢) ، ويبدو أن تعلق هذا الامبراطور بالثقافة والفن الإسلامي بصفة خاصة قد دفعه إلى التطرف في مناهضة عبادة الصور المقدسة والأيقونات ، فشهدت الامبراطورية الموجة الأخيرة للحركة المناهضة للايقونات ، وغدت الأيقونية تلفظ أنفاسها الأخيرة لاسيما وقد أظهر هذا الإمبراطور عنفا شديدا وقسوة في تصريف شئون الدولة وفي مناهضة عبادة الصور والأيقونات ، وبلغ التأثير الإسلامي على بيزنطة الذروة في ذلك العصر دون شك (٣) .

ولم يكن ذلك كل ما اشتهر به هذا الامبراطور إذ أن تعلقه بالثقافة الإسلامية والعلوم العربية وإعجابه بما زخر به البلاط العباسي في ذلك الوقت من تيارات فكرية وثقافة عالية جعله يمعن في محاولة الظهور بمظهر الحاكم المثالي الحريص على نشر العدل في أنحاء الإمبراطورية مقلدا في ذلك الخليفة — هارون الرشيد ، ودفعه ذلك إلى الطواف بأنحاء العاصمة ليقف على أحوال الناس ويتحدث إلى الفقراء والمساكين ويسمع شكوى المظلومين ويأمر بإنزال العقاب بمن ظلمهم مهما علا شأنهم أو سمت مكانتهم في الدولة (٤) .

---

(١) Bury: op. cit. PP. 132—3
Lewis A: Naval power and trade in the Mediterranean P. 133
(٢) Diehl ch: La Legende de l'Empereur Théophile, P. 33
(٣) Ostrogorski: op. cit. P. 183
(٤) العريني : الدولة البيزنطية ص ٢٧٤ و Ibid. P. 184, Bury: op. cit. PP.121—2

وعلى الرغم مما **أظهره** هذا الإمبراطور من حماسة لفنون العرب وثقافاتهم ، فإن ذلك لم يمنعه من شن الحرب عليهم ، منتهزاً فرصة نشوب الخلافات الداخلية والثورات المتأججة في المشرق على عهد الخليفة المأمون ، ولهذا فقد **أظهر ثيوفيل اهتماماً كبيراً بنظام الثغور** وهو النظام الذي كان قائما في الامبراطورية ، فعمل على امتداد الثغور في جهات متعددة لتوطيد مركز الدولة خاصة ناحية البحر الأسود وفي شبه جزيرة البلقان وفي المناطق الجبلية الواقعة على الحدود المتاخمة للمسلمين [١] .

ولقد شكلت **سلسلتي جبال طوروس** بما فيهما من معاقل وحصون هامةخط الحدود بين الدولة البيزنطية والخلافة الاسلامية ، فقد تحكمت معاقل وحصون هذا الخط في الممرات الجبلية الضيقة وتقاطع الطرق التي تخترق تلك السلسلة الجبلية ، وأبدى كل من البيزنطيين والمسلمين حرصا تاما على السيطرة على تلك المعابر والممرات الهامة للهجوم أو الدفاع ، وامتد هذا الخط الدفاعي على امتداد جبال طوروس من الفرات الأعلى إلى حدود قيلقيا ، وكان ينقسم إلى قسمين : القسم الأول من ملطية إلى عين زربة [٢] وأهم حصونه ملطية [٣] ، التي تقع عند ملتقى الطرق المؤدية إلى أرمينية وشمال العراق ويمر الطريق من ملطية على الفرات الأعلى إلى مرعش عبر جبال طوروس بقلعة زبطرة [٤] ، وكان هذا الخط الدفاعي البيزنطي مخصصا لدفع الإغارات الاسلامية الآتية من شمال العراق . أما القسم الثاني فكان مخصصا لمواجهة الإغارات القادمة من بلاد الشام ، وكان اهتمام ثيوفيل بأمر تحصينات الحدود عظيما ، فقد تألف في عهده من بعض الثغور المطلة على الحدود الاسلامية ثلاث وحدات عسكرية إدارية في المناطق الجبلية الواقعة على المناطق المتاخمة للمسلمين وهذه

---

(١) Bury: Eastern Rom. Empire, p. 221
Ostrogorski: op. cit. p. 184 (N. 2)

(٢) ياقوت : معجم البلدان ويسميها عين زربي ج ٦ ص ٢٥٥ (ط مصر سنة ١٩٠٦) .

(٣) ياقوت : نفسه ج ٨ ص ١٥٠ .

(٤) ياقوت : نفسه ج ٤ ص ٣٧٤ — ٣٧٥ .

الوحدات هي التي اشتهرت باسم **الدروب** ، والتي أضحت فيما بعد ثغوراً[1] .

كما اهتمت الدولة الاسلامية لاسيما على عهد الخليفة هارون الرشيد بتأمين حدودها المطلة على الأراضي البيزنطية ، وقام هارون الرشيد بتأسيس إقليم مشابه لإقليم الأطراف عند الروم وسماه **إقليم العواصم والثغور** ، ويقصد بالعواصم سلسلة الحصون الداخلية التي تعصم الحدود وتعينها على صد غارات الروم ، وتتميز هذه الحصون الداخلية عن الحصون الخارجية الملاصقة لحدود الروم التي سميت بالثغور لمواجهتها للثغرات أو المنافذ في أرض العدو[2] وكانت أنطاكية هي عاصمة إقليم العواصم[3] ، وجعل هارون الرشيد على هذا الاقليم ابنه المعتصم وشمل إقليم العواصم حلب ومنبج وأنطاكية وامتد إلى ساحل البحر المتوسط . أما اقليم الثغور فكان ينقسم إلى قسمين : أحدهما في الشمال الشرقي ويسمى بالثغور الجزرية التي تدافع عن شمال العراق ومن أهم حصونها زبطرة ومنصور والحدث ، والقسم الثاني يسمى بالثغور الشامية في الجنوب الغربي ، ويقترب من ساحل الاسكندرونة وأهم حصونه المصيصة وأدنة وطرسوس[4] .

ويعتبر الدرب المعروف منذ القدم باسم درب أبواب قيلقية من أهم ممرات جبال طوروس اجتازه المسلمون والبيزنطيون عند قيام كل طرف منهما بغزو الطرف الآخر ويبلغ طول هذا الدرب نحو سبعين ميلا ، ويبدأ من سفح هضبة آسيا الصغرى جنوبي طوانة ويمتد حتى سفوح جبال طوروس المطلة على سهل قبادوقيا[5] ، وبالقرب

---

(١) ابن حزداذبة : المسالك والممالك ص ١٠٨ ونص عبارته « وعمل سلوقية من ناحية بحر الشام إلى طرسوس واللامس ويتولاه عامل الدروب وفيه من الحصون سلوقية وعشرة حصون » وأنظر أيضاً العريني : الدولة البيزنطية — ص ٢٧٥ .

(٢) العدوى : الدول الإسلامية وامبراطورية الروم ص ٨٩ .

(٣) ياقوت : معجم ج ٦ ص ٢٣٧ .

(٤) العدوي : المرجع السابق ص ٩٠ . انظر :
Le Strange: The Lands of the Eastern Caliphate. p. 188

(٥) Bury: op. cit. p. 245,
العدوي : نفسه ص ٩٠ — ٩١ ، العريني : الدولة البيزنطية ص ٢٧٨ .

من الطرف الشمالي لهذا الدرب تقع قمة منعزلة شديدة الإرتفاع يبلغ ارتفاعها نحو ألف قدم تشرف على المنحدرات الشمالية لجبال طوروس وتتحكم في سهول قبادوقيا الجنوبية وعلى هذه القمة الهائلة قامت قلعة اللؤلؤة التي ذاع صيتها وظلت مضرب الأمثال في المناعة والحصانة ، وتبادل المسلمون والبيزنطيون امتلاكها[١] لإنها مفتاح ممر أبواب قيلقية ، ومما أضاف إلى أهميتها أنها تتحكم في الطريق الشمالي المؤدي إلى طوانة والطريق الغربي المؤدي إلى هرقلة لأنهما يلتقيان بالقرب منها[٢] .

وهناك **الدرب الثاني الذي يمتد من مرعش إلى البستان أو الابلستين** ويحميه الحصن المعروف بحصن الحدث ، ولقد ارتاد المسلمون هذين الدربين في غزواتهم لآسيا الصغرى وفي اتصالهم بالدولة البيزنطية — وإن كثر اجتيازهم لدرب أبواب قيلقية أو كما عرف بدرب السلامة فسلكه رجال البريد ورسل الخليفة إلى بيزنطة ، بالإضافة إلى جيوش الغزاة ، وتميز عن الدرب الآخر الذي عرفه المسلمون أحيانا بدرب الحدث[٣] ، وترجع هذه التسمية إلى مالقيه العرب عنده من هزائم متكررة في بداية الفتوح ، كان لها أثر سيء في النفوس[٤] .

ولقد أقام الروم عبر آسيا الصغرى سلسلة من المنارات حتى القسطنطينية استخدمت في ارسال الأنباء بواسطة إشعال النار عند قيام إغارة إسلامية على حدود الدولة واستخدمت هذه الطريقة منذ القدم ، لكن حدث خلال حكم الإمبراطور ثيوفيل أن أدخل ليو الرياضي أحد العلماء البيزنطيين المتضلعين في علم الهندسة تحسينا جديداً على ذلك النظام وجرى استخدامه من قبل الإمبراطور ثيوفيل في نقل البريد بآسيا

---

(١) ياقوت : معجم ج ٧ ص ٣٤٣ .

(٢) العدوي : نفسه ص ٩١ ، Bury: op. cit. p. 246,

(٣) ياقوت : معجم ج ٣ ص ٢٣١

(٤) Le Strnge: op. cit. p. 128

الصغرى ونقل الأخبار من أطراف آسيا الصغرى إلى القصر الإمبراطورى عبر نظام دقيق وأهم تلك الأخبار دون شك أنباء الإغارات الإسلامية عبر الحدود (١) .

واندلعت الحروب بين ثيوفيل والخلافة العباسية على عهد اثنين من الخلفاء العباسيين هما المأمون وأخيه المعتصم ، فما كان معروفاً عن ثيوفيل من حماسة لفنون العرب وثقافاتهم وما اشتهر به من شغف بالعلوم العربية والإسلامية لم يمنعه من شن الحرب على المسلمين والإغارة على حدودهم ، وشجعه على ذلك انصراف الخليفة المأمون في مستهل حكمه إلى القضاء على الفتن الداخلية في مصر وفي المشرق حيث اندلعت في هذا الجزء الأخير من الدولة حركة الخرمية التي تزعمها بابك الخرمي الفارسي (٢) ، وانتهز ثيوفيل الفرصة ولجأ بعد ولايته العرش مباشرة إلى الاتصال ببابك فنزح أعداد كبيرة من الخرمية إلى الأراضي البيزنطية ، ودخلوا في خدمة الامبراطور ، فأمر بتوزيعهم على ثغور الإمبراطورية وبلغوا على حد بعض الروايات التاريخية نحو خمسة عشر ألف رجل جعلهم في فرق بلغ كل منها ألفين من الرجال وجعلهم في خدمة الدولة البيزنطية (٣) .

وفي ربيع سنة ٨٣٠م (٢١٥هـ) اجتاز ثيوفيل الجبال وبصحبته الخرمية وهاجم بعض القرى والحصون الإسلامية وقتل من أهلها عددا كبيراً محاولا استثارة الخلافة العباسية في ظروف غير مواتية بالنسبة لها ومحدثا مظاهرة عسكرية صاخبة عبر حدودها غير أن الخليفة العباسي المأمون لم يكد يسمع بهذه الأنباء حتى رأى أن يقابل عداء ثيوفيل ونشاطه بالهجوم على أطراف دولته في آسيا الصغرى (٤) ، فاندلعت الحرب في

---

(١) العدوي : نفسه ص ٩٣ و Bury: op. cit. p. 248

(٢) اليعقوبي : تاريخه ج ٢ ص ٤٧٤ — ٤٧٥ ، الطبرى : تاريخه ج ١٠ ص ٢٧٠
المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ٤٤٢ ، ص ٤٦٧ ، ابن الاثير : الكامل ج ٥ ص ٢٣٤
(ط بيروت) ، Ostrogorski: op. cit. p. 185

(٣) الطبري : تاريخ الأمم والملوك ج ١٠ ص ٢٨٠ (سنة ٢١٥ هـ) ط بيروت .

(٤) ابن الأثير : الكامل ج ٥ ص ٢١٩ .

سنة ٨٣٠م (٢١٥هـ) فجأة حين خرج المأمون في أواخر المحرم (٢١٥هـ) قاصدا غزو الروم وسلك الطريق إلى الموصل ومنها إلى منبج ثم إلى دابق ثم إلى أنطاكية ثم المصيصة ثم إلى طرسوس ومنها اجتاز حدود الدولة البيزنطية ووجه ابنه العباس للإغارة على بعض الحصون وفتح بنفسه حصنا يسمى ماجدة ثم حصنا آخر يقال له قرة فتحه عنوة وأمر بهدم هذا الحصن الأخير ، ووجه لفيفا من قادته إلى بعض الحصون الأخرى فافتتحوها مثل حصن سندس وسنان وغيرها ، ثم قفل راجعا إلى دمشق بعد أن أنزل الهزيمة بثيوفيل ولقنه درسا قاسيا ، ولم ينج ثيوفيل بحياته إلا بصعوبة بالغة حيث عاد أدراجه في حالة غاية في السوء(١) .

ويبدو أن ثيوفيل استعاد بعض توازنه وعاد في العام التالي ٨٣١م (٢١٦هـ) فهاجم طرسوس والمصيصة وقتل من أهلها عددا كبيراً ، واستولى على بعض الحصون الأخرى الأمر الذي شجعه على أن يرسل إلى المأمون وهو بأدنة يعرض عليه الصلح وإطلاق سراح خمسمائة من أسرى المسلمين وإعادة ما استولى عليه من الحصون مقابل عقد هدنة أمدها خمس سنوات ، ويبدو أن إمعان ثيوفيل في قتل الأهالي في المدينتين المذكورتين فضلا عن أنه حين كتب إلى المأمون بدأ بنفسه — على حد رواية الطبري(٢) مقدما نفسه على الخليفة المأمون « فلما ورد الكتاب عليه (المأمون) لم يقره وخرج إلى أرض الروم . . . » واستولى المأمون على بعض الحصون ثم استسلمت له هرقلة بغير قتال ووجه أخاه أبا اسحق ففتح ثلاثين حصنا ووجه يحيي بن أكثم من طوانة فأغار وقتــل وحرق ، بينما جرت معركة كبيرة بين القوات البيزنطية بقيادة الإمبراطور ثيوفيل نفسه وبين جيش العباس بن المأمون أحرز فيها العباس انتصاراً باهرا ، واستولى على عدد من الحصون والمواقع(٣) وأخيرا « خرج المأمون إلى كيسوم

---

(١) Bury: op. cit. p. 472—73,
ابن الأثير : الكامل ج٥ ص ٢١٩ – ٢٢٠ (سنة ٢١٥هـ)
(٢) الطبري : تاريخ ج١٠ ص ٢٨١ .
(٣) فاز يلييف : العرب والروم ص ١٠٤ ، Bury: op. cit. p. 474

فأقام بها يومين أو ثلاثة ثم ارتحل إلى دمشق[1] منهيا هذه الجولة لصالح الخلافة العباسية دون شك .

غير أن المأمون اضطر في العام التالي ٨٣٢م (٢١٧هـ) لدخول مصر للقضاء على فتنة نشبت بها ، وظل بمصر من فبراير إلى إبريل سنة ٨٣٢م ، ولم يمنعه ذلك من استئناف القتال ضد البيزنطيين بآسيا الصغرى ، فعاد على عجل واجتاز الحدود البيزنطية ، وألقى الحصار على قلعة لؤلؤة الشهيرة التي تتحكم في درب أبواب قيلقية واستمر يحاصرها أكثر من ثلاثة أشهر صمدت خلالها للحصار[2] ، فمنع المأمون عنها الأقوات وعهد إلى أحد قادته ويدعى عجيفا بالمضي في حصارها ، فاستسلمت القلعة للمسلمين ، ولم يفد ثيوفيل مابجأ إليه من حصار القلعة — إذ بادر المأمون بارسال الجيوش العباسية إليه « فارتحل ثيوفيل قبل موافاتهم »[3] ، أي أنه جبن عن لقاء المسلمين ، وآثر الانسحاب قبل أن يصلوا إليه ، فكان النصر النهائي في هذه الجولة أيضاً للخليفة المأمون[4] .

ولاشك أن ذلك دفع ثيوفيل إلى تقديم عروضه للسلام والموادعة وطلب الصلح « وقد كنت كتبت إليك داعيا إلى المسالمة راغبا في فضيلة المهادنة لتضع أوزار الحرب عنا ونكون كل واحد لكل واحد وليا وحزبا ، مع اتصال المرافق والفسح في المتاجر وفك المستأسر وأمن الطرق »[5] ، ثم أردف ذلك باصطناع الشدة والتهديد « فإن أبيت فلا أدب لك في الخمر ، ولا أزخرف في القول ، فاني لخائض إليك غمارها آخذ عليك أسدادها شأن خيلها ورجالها » . على أن المأمون لم يكن يثق أصلا فيما جاء

---

(١) الطبري : نفسه ج ١٠ ص ٢٨١ .

(٢) Bury: op. cit. p. 474

(٣) الطبري : نفسه ج ١٠ ص ٢٨٣ ،
Camb. Med. Hist. V. 4, p. 128

(٤) Camb. Med. Hist. V. 4, p. 128

(٥) الطبري : تاريخه ج ١٠ ص ٢٨٣ .

بكتب هذا الإمبراطور ، فضلا عما تعمده هذا من إظهار الغلظة والتهديد ، فكتب إليه المأمون : « فقد بلغني كتابك فيما سألت الهدنة ودعوت إليه من الموادعة وخلطت فيه من اللين والشدة . . . ولولا مارجعت إليه من أعمال التؤدة والأخذ بالحظ في تقليب الفكرة . . لجعلت جواب كتابك لحيلا تحمل رجالاً من أهل البأس والنجدة والبصيرة ينازعونكم عن ثكلكم ويتقربون إلى الله بدمائكم »[1] وأردف المأمون ذلك بتجهيز حملة عزم بها على المضي في القتال ، فدخل آسيا الصغرى واستولى على بعض المواضع والقلاع الحصينة ، ووجه ابنه العباس على رأس جماعة « وأمره بنزول الطوانة وبنائها » واتخذ المأمون من الطوانة قاعدة لعملياته العسكرية[2] ، ثم عاد إلى البدندون فحلت به حمى شديدة أدت إلى وفاته ، في أغسطس سنة ٨٣٢م (٢١٨هـ) « فحمله ابنه العباس وأخوه أبو اسحق محمد بن الرشيد إلى طرسوس فدفناه في دار كانت لخاقان خادم الرشيد »[3] .

وانتهت بذلك المرحلة الأولى من الحروب التي نشبت بين الإمبراطور ثيوفيل والخليفة العباسي المأمون ، وواضح أن النصر النهائي خلالها كان لصالح الخلافة العباسية التي نجحت جيوشها في إنزال الهزائم المتوالية بجيوش الإمبراطورية البيزنطية والاستيلاء على كثير من القلاع والحصون التابعة لها في مناطق الحدود ، وفي إحدى المرات لم ينج الامبراطور نفسه من الموت إلا بشق الأنفس حيث عاد إلى عاصمته في حالة سيئة[4] . وهكذا لم تنجح محاولات ثيوفيل في استغلال الظروف الحرجة التي مرت بها الخلافة العباسية وانشغالها بثورتي بابك الخرمي وثورة مصر ، ففي وسط هذه الأحداث لم تتوان الخلافة العباسية عن التصدي لبيزنطة وتلقين إمبراطورها دروسا قاسية ، بل واختراق حدودها في أكثر من جهة[5] .

---

(١) الطبري : نفسه ج١٠ ص ٢٨٣/٢٨٤ .
المسعودي : مروج الذهب ج٣ ص ٤٥٦ (ط بيروت ١٩٦٦) .

(٢) الطبري : نفسه ج١٠ ص ٢٩٥ ، Camb. Med. Hist. V. 4, p. 128

(٣) المسعودي : نفسه ج٣ ص ٤٥٦ ، الطبري : نفسه ج١٠ ص ٢٩٥

(٤) Bury: op. cit. pp. 472—73

(٥) Ostrogorski: op. cit. p. 185

ولى الخلافة بعد المأمون أخوه المعتصم (٢١٨ – ٢٢٧هـ / ٨٣٣ ٨٤٢م) الذي اشتهر بالبسالة والشجاعة والفروسية ، كما عرف عنه حبه للأتراك وتمكينه لهم في الدولة ، غير أنه عمل في السنوات الأولى من حكمه على تهدئة الأمور مع الدولة البيزنطية ، حتى تتاح له الفرصة للقضاء على فتنة بابك الخرمي التي شغلت الخلافة العباسية في الفترة السابقة ، على حين انشغل ثيوفيل هو الآخر بمحاولة استعادة صقلية من المسلمين [١] .

فلم يكد يمضي من خلافة المعتصم أربع سنوات حتى استأنف ثيوفيل سياسته العدائية ضد الخلافة العباسية في الشرق ، لاسيما بعد فشل بيزنطة في استرداد صقلية من المسلمين في الغرب ، ولما بلغه من سوء أحوال بابك الخرمي ، وإشراف ثورته على الفشل الذريع بما يعنيه ذلك من تخلص الخلافة العباسية من ألد أعدائها وإنهاء مشاكلها ، والاتجاه حتما ناحية بيزنطة لمنازلتها واستئناف قتالها ، هذا فضلا عما لجأ إليه بابك الخرمي من الاتصال بالإمبراطور عارضا عليه أن يعتنق هو وأتباعه المسيحية وأن يكونوا في خدمة الإمبراطورية البيزنطية [٢] ، إذا نجحت بيزنطة في انقاذه ، ودعم ثورته ضد العباسيين .

لهذه الأسباب خرج الإمبراطور ثيوفيل من عاصمته وشق طريقه نحو الشرق بغية الإغارة على أطراف العراق والاتصال بالخرمية ، إذ كانت أرمينية وآذربيجان من معاقل بابك ، وكان ثيوفيل في نحو سبعين ألفا من الجند وثلاثين ألفا من الاتباع بينهم : البلغار والصقالبة وفيهم فرقة من الفرس أصحاب بابك ، وكذلك الأكراد ويبدو أن الإمبراطور هدف إلى فتح الطريق بينه وبين بابك للاتصال به [٣] . وكان أن هاجم الروم حصن زبطرة الحصين ، وهو من ثغور الجزيرة الهامة ، فجرى

---

(١) Camb. Med. Hist. V. 4, pp. 130—131

(٢) فاز يلييف : العرب والروم ص ١٢٤ ، Bury: op. cit. p. 259

(٣) راجع اليعقوبي : تاريخه ج٢ ص ٤٧٥ ، الطبري : تاريخه ج١٠ ص ٣٣٤
ابن الأثير : الكامل ج٥ ص ٢٤٦ – ٢٤٧ .

إحراق البلدة وقتل الذكور من أهلها أو إخضاعهم لشتى أنواع التعذيب من سمل الأعين أو جدع الأنوف أو صلم الآذان ، وأسرت النساء والأطفال ، كما هاجم الروم سميساط أيضا وجعلوها طعمة للنيران غير أن ملطية فتحت أبوابها وأطلقت أسرى الروم فنجت بنفسها من ذلك المصير التعس[١] ، وليس هناك تبرير لهذه المذابح البشرية الرهيبة وعمليات الانتقام الوحشية ، سوى أن الامبراطور أراد أن يفرغ في هذه المدن والقلاع حصيلة فشله في حملته ، وعدم توفيقه فيما خرج من أجله ، فقد وصل إلى أعالي الجزيرة متأخرا بعد أن انهزم بابك الخرمي وجرى أسره على يد الإفشين[٢] ، فعبر الإمبراطور عن ضيقه وغضبه بأن صب جام غضبه وانتقامه على أهل الثغور الجزرية ليظفر على الأقل بشيء من الغنائم والسبي بدلا من أن يرجع صفر اليدين خائبا ، وحتى يعود إلى عاصمته وقد حقق بعض الظفر ، وفعلا جرى استقباله في القسطنطينية استقبال الظافرين ، وبدأ في بناء قصر وشق قناة تخليدا لذلك النصر الأجوف .

وفي نفس الوقت كان الهاربون من زبطرة والثغور الجزرية قد وصلوا إلى سامراء في حالة سيئة يحملون تلك الأنباء المروعة التي هزت الخليفة المعتصم كثيراً وأثارت روح الانتقام في نفوس الناس[٣] ، فأمر المعتصم بعمامة الغزاة فاعتم بها ونادى « بالنفير » وبالاستعداد للحرب ، على أن معظم المصادر الاسلامية وضعت **حملة المعتصم لفتح عمورية** وراء أحداث زبطرة مباشرة لتوحي بأن حملة عمورية جاءت ردا سريعاً ومباشرا لما حدث في زبطرة ، فالطبري يقول: « واستعظم المعتصم ذلك ، فذكر أنه لما انتهى إليه الخبر . . صاح في قصره النفير ثم ركب دابته . . . ثم عسكر بغربي دجله »[٤] ويقول اليعقوبي : « فلما انتهى الخبر إلى المعتصم قام من مجلسه

(١) فاز يلييف : العرب والروم ص ١٢٧ .

(٢) Ostrogorski: op. cit. p. 185

(٣) أنظر الفخري في الآداب السلطانية ص ٢٠٩ .

(٤) الطبري : تاريخه ج ١٠ ص ٣٣٥ .

نافراً حتى جلس على الأرض وندب الناس للخروج »[1] ، ويقول المسعودي : « فخرج المعتصم من فوره نافرا عليه دراعة من الصوف بيضاء وقد تعمم بعمامة الغزاة فعسكر في غربي دجلة »[2] ويقول ابن الأثير : « فلما بلغه ذلك استعظمه وكبر لديه ، وبلغه أن امرأة هاشمية صاحت وهي أسيرة في أيدي الروم وامعتصماه فأجابها وهو جالس على سريره لبيك لبيك ونهض من ساعته »[3] .

غير أن الدلائل كلها تشير إلى أن حملة المعتصم لفتح عمورية لم تحدث عقب أحداث زبطرة مباشرة ، وإنما بعدها بأكثر من ثمانية أشهر فقد جاءت أحداث زبطرة – كما سبق أن بينا – نتيجة لفشل ثيوفيل في نجدة بابك وإخراجه من محنته لوصول ثيوفيل متأخرا بعض الشيء بعد هزيمة بابك ، فكانت أحداث زبطرة تعبيرا عن روح الغضب لدي الإمبراطور وعلامة فشله فيما خرج من أجله . وإذ ثبت أن هزيمة بابك على يد الإفشين ودخول المسلمين إلى مدينة البذ عاصمة بابك كان في ٢٠ رمضان سنة ٢٢٢هـ (٢٦ أغسطس – آب – سنة ٨٣٧) على قول الطبري[4] ، فإن خروج ثيوفيل وأحداث زبطرة لابد تمت بعد ذلك بقليل أي في شوال سنة ٢٢٢هـ (سبتمبر – أيلول – سنة ٨٣٧م)[5] . وعلى هذا تكون أخبار مذبحة زبطرة والثغور الجزرية قد وصلت للمعتصم في نفس الشهر أي في سبتمبر سنة ٨٣٧ (شوال سنة ٢٢٢ هـ) .

وحيث أن المصادر الاسلامية لاسيما كتب اليعقوبي والطبري والمسعودي وابن الأثير وغيرهم من المؤرخين القدامى قد أفادت أن خروج المعتصم إلى معسكره بغربي دجله تمهيداً للمسير إلى عمورية قد حدث في جمادى الأولى سنة ٢٢٣ هـ

(١) اليعقوبي : تاريخه ج٢ ص ٤٧٥ .
(٢) المسعودي : مروج الذهب ج٣ ص ٤٧٢ .
(٣) ابن الأثير : الكامل ج٥ ص ٢٤٧ .
(٤) الطبري : تاريخه ج١٠ ص ٣١٨ .
(٥) Bury: op. cit. p. 250

أي في العام التالي لأحداث زبطرة[1] ؛ وهو يعادل أوائل إبريل (نيسان) سنة ٨٣٨ فان خروج المعتصم في حملة عمورية – طبقاً لذلك يكون قد حدث بعد نحو ثمانية أشهر من أحداث زبطرة وهي الفترة الواقعة بين سبتمبر سنة ٨٣٧ وإبريل سنة ٨٣٨ ، ولم يحدث عقب هذه الأحداث مباشرة كما أوحى بذلك المؤرخون .

ويؤكد ذلك أن الأشهر الواقعة بين سبتمبر وإبريل هي أشهر الشتاء حيث يتساقط الثلج في تلك الجبال والدروب ، ولا تصلح هذه الفترة لمسير الجيوش الضخمة وشن الهجمات الحربية . ويؤكد ذلك أيضا ما يفهم من رواية ابن الأثير من أن المعتصم تمهل في الزحف ريثما تتم تعبئة الجيش« ولم يمكنه المسير إلا بعد التعبئة وجمع العساكر[2] » أي أنه لم يستطيع الخروج بعد سماع الأنباء السيئة مباشرة وإنما بعد أن تيسر له إعادة تعبئة الجيش . ويؤكد ذلك أيضاً ما حدث عند سماع المعتصم لأنباء زبطرة إذ سير « عجيف بن عنبسه وعمر الفرغاني ومحمد كوته وجماعة من القواد إلى زبطرة إعانة لأهلها فوجدوا ملك الروم قد انصرف إلى بلاده بعد مافعل »[3] ، ولو كان المعتصم ينوي الخروج فورا بعد سماعه تلك الأنباء السيئة لما اضطر لتسيير نجدة وجيش إلى زبطرة لتهدئة روع من بقى من سكانها وطمأنة الناس في الثغور الجزرية ، والأقرب إلى الحقيقة أنه إنما أراد بهذة النجدة السريعة تسكين النفوس رثيما يتم له الاستعداد وتسيير الحملة الكبرى إلى هناك .

وليس من شك في أن المعتصم تمهل هذه الشهور الثمانية ، وخاصة أنه لم يكن قد تسلم بابك بعد ، حين جرت أحداث زبطرة ، وإن كان قد تم أسره في سبتمبر سنة ٨٣٧م (شوال سنة ٢٢٢هـ) ، ووصل إلى سامراء في يناير سنة ٨٣٨ (صفر سنة ٢٢٣هـ)[4] ، فلم يكن بوسع المعتصم أن يخرج قبل أن يتسلم بابك ويتخلص منه

---

(١) اليعقوبي : تاريخه ج٢ ص ٤٧٥ ، الطبري : نفسه ج١٠ ص ٣٣٥ .
المسعودي : مروج الذهب ج٣ ص ٤٧٢ ، ابن الأثير ، الكامل ج٥ ص ٢٤٧ .

(٢) ابن الأثير : نفسه ج٥ ص ٢٤٧ .

(٣) الطبري : تاريخه ج١٠ ص ٣٣٥ .

(٤) الطبري : تاريخه ج١٠ ص ٣٣٢ ، المسعودي : مروج الذهب ج٣ ص ٤٧٠ .
اليعقوبي : تاريخه ج ٢ ص ٤٧٤ .

نهائيا ويستفيد من جنود حملة الإفشين بعد عودتهم إلى سامراء عقب القضاء على بابك فيما عزم عليه من غزو عمورية ، ولهذا فقد انتظر المعتصم هذه الأشهر الثمانية حتى انتهى فصل الشتاء وبدأ الربيع ثم أخذ يزحف في طريقه إلى عمورية ، وإن كان قد قضى معظم هذه الفترة في أغلب الظن « معسكرا بموضع يعرف بالعيون غربي دجلة »[1] على حد قول اليعقوبي . فليس المعتصم بالرجل الذي ينفعل في غير تبصر أو يستسلم للعاطفة دون العقل ، وإنما هو قائد محنك مجرب انتظر مقدم جنوده من المشرق وانقضاء فصل الشتاء واكتفى حينئذ بارسال نجدة سريعة للمنطقة التي تعرضت للهجوم . . . ولما اكتملت قواته وتمت استعداداته وتحسنت الأحوال الجوية خرج على رأس جيوشه[2] ، ولهذا فقد أحرز في حملته هذه انتصارات باهرة على قوات ثيوفيل وأكد أن حملته لم يجر حشدها في عجالة وإنما نالت حظها من الاستعداد والترتيب .

وعلى هذا يمكن ترتيب الأحداث كلها كالآتي : جرت هزيمة بابك ودخول البذ في أغسطس (آب) سنة ٨٣٧م أي في رمضان سنة ٢٢٢هـ وتسلم الإفشين بابك أسيرا في سبتمبر (أيلول) سنة ٨٣٧ أي شوال سنة ٢٢٢هـ ، ثم وصل بابك إلى سامراء في يناير (كانون الثاني) سنة ٨٣٨ أي في صفر سنة ٢٢٣هـ[3] ، ثم خرج المعتصم في أوائل إبريل (نيسان) سنة ٨٣٨م أي في جمادى الأولى سنة ٢٢٣هـ ، ثم جرت الحروب بينه وبين الروم في يوليو (تموز) سنة ٨٣٨ أي في شعبان سنة ٢٢٣هـ[4] ، كما نصت على ذلك المصادر القديمة والمعاصرة . وليس صحيحاً ماذهب إليه كل من فازيلييف في كتابه العرب والروم وبروك Brooke في مجموعة كامبردج ،

(١) اليعقوبي : نفسه ج ٢ ص ٤٧٥

(٢) Bury: op. cit. p. 262

(٣) المسعودي : مروج الذهب ج٣ ص ٤٧٠ .
التنبيه والإشراف ص ٣٠٥ .

(٤) الطبري : تاريخه ج١٠ ص ٣٣٢
وراجع : شاكر مصطفى : دولة بني العباس ج٢ ص ٥٦٢ – ٥٦٣ .

من أن خبر زبطرة وصل قبيل هزيمة بابك ، فسقوط بابك سابق حتما لأحداث زبطرة ويؤيد ذلك ما ذكره الطبري : « واتفق من لطف الله تعالى أن المعتصم ظفر ببابك الخرمي عند ورود الخبر بخروج ملك الروم » ، أي أن الظفر ببابك سبق أحداث زبطرة وإن تأخر وصول بابك نفسه إلى سامراء عدة أشهر كما بينا .

ولم تكن الأشهر الثمانية التي انتظرها المعتصم فترة طويلة ، بل إنه كان مطالبا بالبقاء إلى أوائل الخريف سنة ٨٣٨م ، أي البقاء نحو ستة أشهر أخرى إضافة إلى الأشهر الثمانية تحقيقاً لمطالب فريق من المستشارين وبعض المنجمين الذين نصحوا بتأخير الخروج حتى مطلع الخريف « **ونضج التين والعنب** » ، ولكن حماسة المعتصم دفعته إلى التبكير بالخروج بعد أن أعاد تعبئة قواته واستعد الاستعداد الكافي وانتهى فصل الشتاء وتحسنت الظروف الجوية ، ولعل هذا يفسر — كما ذهب مؤرخ محدث بيت أبي تمام الشهير في قصيدة فتح عمورية :

عشرون ألفا كآساد الشرى نضجت جلودهم قبل نضج التين والعنب[1]

وحين عزم المعتصم على الخروج لحرب الروم « **سأل : أي حصون الروم أمنع وأقوى ؟ فقيل له عمورية** ، فإنه لم يقصدها مسلم منذ ظهور الإسلام ، وهي عين المسيحية . . . وهي عندهم أشرف من القسطنطينية » [2] ، فضلا عن أنها كانت مسقط رأس مؤسس الأسرة الحاكمة في بيزنطة ، وكانت حينئذ تعيش ذروة مجدها وأحسن أيامها ، **فقد ترتب على تأسيس ميخائيل الثاني لأسرته الحاكمة أن أعطى اهتماماً كبيراً لمدينة عمورية ورفع كرسيها الديني إلى أسقفية رئيسية مستقلة بما يعنيه ذلك من تعظيم** لها بين المدن القليلة التي تتبوأ هذه المكانة الدينية[3] . ولهذا اختار الخليفة المعتصم مدينة عمورية هدفا لحملته ، وجرى كتابة « عمورية » على الألوية والتروس قبل أن تخرج الحملة من العراق[4] .

---

(١) راجع شاكر مصطفى : المرجع السابق ج٢ ص ٥٦٤ .
(٢) الطبري : تاريخه ج١٠ ص ٣٣٥ .
(٣) فاز يلييف : العرب والروم ص ١٤٤ .
(٤) المرجع السابق ص ١٣١ .

وليس صحيحاً ما ذهب إليه صاحب الفخري من أن قرار اختيار عمورية هدفا للحملة انما جاء خلال الحملة ذاتها ، وليس قبل تحركها[1] وجاراه في ذلك بعض المؤرخين المحدثين[2] . غير أن واقع الأمر ينفي ذلك تماما ، إذ أكدت النصوص أن المعتصم حدد هدفه منذ البداية وجعل عمورية الهدف النهائي للحملة ، ولم يخرج من معسكره قبل أن يحدد وجهته وينظم جيوشه ويراجع خططه[3] . ويبدو لنا أنه إنما اختار عمورية بالذات لأهميتها الدينية عند البيزنطيين كما قيل له ، ومن ناحية أخرى لأنها مدينة الأسرة الحاكمة في بيزنطة[4] ، واقتحامها يذل الإمبراطور في مدينته ويشفى غلة انتقام المعتصم ويشفى صدور المسلمين ، ومن ناحية ثالثه يبدو لنا أن المعتصم إنما اختار مدينة حصينة ليهاجمها اظهارا لقوته وتفوق جيوشه وليؤكد للإمبراطور ثيوفيل أنه لن يحول بينه وبين أمنع حصون الروم مانع إذا أراد . ولو كان المعتصم يريد مجرد رد فعل سريع وانتقام محدود لاختار مدنا أقرب إلى دولته ، وأضعف من عمورية ، لكنه في رأينا أراد أن يخاطب ثيوفيل بأسلوب الواثق القوي ليضعه في حجمه ويكشف له حقيقته ويعطيه درسا مفيدا ، لاسيما وأن عموريه كانت تقع على الطريق المؤدية إلى القسطنطينية عاصمة الدولة[5] . وكانت عمورية ذات حصن قوي ولها سور عظيم عليه أربعة وأربعون برجا ، وأحاط بها خندق واسع ، ولهذا قرر المعتصم المسير إليها منذ البداية وخطط لذلك جيداً . ومما يؤكد أن اختيار عمورية كان هدفا للحملة منذ البداية ماذهبت إليه المصادر البيزنطية — برغم ما في ذلك من تجاوز — من أن زبطرة التي هاجمها ثيوفيل كانت مسقط رأس المعتصم لهذا اختار المعتصم عمورية مسقط رأس غريمة هدفا له . . أي أن اختيار

---

(١) راجع الفخري ص ٢٣٠ (ط بيروت ١٩٦٦) .
(٢) شاكر مصطفى : نفسه ج٢ ص ٥٦٤ .
(٣) الطبري : تاريخه ج١٠ ص ٣٣٥ .
(٤) Bury: op. cit. p. 262
(٥) Ostrogorski: op. cit. p. 185
Bury: op. cit. p. 262

عمورية تم منذ البداية ولم يأت خلال الحملة ـ كما أشارت إلى ذلك بعض النصوص [١] .

وتذكر المصادر العربية وكذلك المصادر السريانية ـ ميخائيل السرياني ـ عظم حملة المعتصم على عمورية ، فيذكر الطبري أن المعتصم « تجهز جهازا لم يتجهز مثله قبله خليفة قط من السلاح والعدد والآلة وحياض الأدم والبغال والروايا والقرب ... وآلة الحديد والنفط» [٢] ، ويقول المسعودي : « فلم يكن يحصى الناس العدد ولا يضبطون كثرة ، فمن مكثر ومقلل فالمكثر يقول خمسمائة ألف والمقلل يقول مائتي ألف» [٣] . ويذكر ميخائيل السرياني أن المعتصم سار على رأس نحو خمسين ألفا من الجند وسير مع الإفشين ثلاثة وثلاثين ألفا ، وسار مع الجيش التجار والباعة وأتباع الجيش ومعهم خمسون ألف دابة [٤] . **ويبدو أن جيش المعتصم ضم إلى جانب العرب والترك والمغاربة (عرب مصر) فرقة من الأرمن يقودها** بطريق البطارقة كما أشارت إلى ذلك الروايات البيزنطية ، وانضم إليهم كذلك أمير ملطية على رأس قواته [٥] ، وتكون جيش المعتصم من نحو مائة ألف جندي على الأرجح فضلا عن الأتباع والتجار والباعة ومعهم عدد وافر من الدواب ، وعزم الخليفة على المسير إلى أنقرة أولا فإذا أخذها تقدم بعد ذلك إلى عمورية [٦] .

سارت الحملة بقضها وقضيضها ، وعندسروج قسم المعتصم جيشه إلى قسمين ، وضع على القسم الأول منهما ويبلغ نحو ثلث هذا الجيش قائده ذائع الصيت**الإفشين** أبرز القادة حينئذ والذي نجح من قبل في القضاء على الفتنة في مصر وأجهز على ثورة بابك الحزمي ، وقاد **المعتصم القسم الأكبر** من الحملة ويبلغ نحو ثلثي الجيش واضعا

---

(١) أنظر الفخري في الآداب السلطانية ص ٢٣٠ .

(٢) الطبري : تاريخه ج١٠ ص ٣٣٥ .

(٣) المسعودي : مروج الذهب ج٣ ص ٤٧٢ — ٤٧٣ .

(٤) ميخائيل السرياني ج٣ ص ٩٥ .
شاكر مصطفى : نفس المرجع ص ٥٦٥ .

(٥) فازيلييف : العرب والروم ص ١٣٣

(٦) Bury: op. cit. p. 263

أشناس التركي القائد البارع الثاني في هذه الفترة على رأس فرقة كبيرة تقرب من ثلث الجيش أيضا ، غير أن القيادة العليا كانت للمعتصم لاسيما وأنه قد قرر أن يسير هو وأشناس متقاربين . وبعبارة أخرى جرى تقسيم الجيش العباسي الكبير إلى ثلاثة أقسام : قسم تحت قيادة المعتصم نفسه وقسم يليه في الأهمية تحت قيادة الإفشين والثالث تحت قيادة أشناس التركي تحسبا وحذرا ، على أن يسير الإفشين من طريق يختلف تماما عن الطريق التي يسلكها المعتصم وأشناس[1] .

فقد قضت الخطة بمسير الإفشين إلى أنقرة سالكا طريق مرعش ودرب الحدث في وقت متفق عليه تماما ، ثم يسير بعد ذلك أشناس والمعتصم من الطوانة صوب الشمال إلى أنقرة ، ولا يتخذان الدرب الآخر — درب قيلقية — الذي يتوقع ثيوفيل قدوم المسلمين منه ، على أن يسبق أشناس المعتصم بيومين[2] . ويعتبر ذلك قمة الدهاء في خطة المعتصم إذ عول على سلوك طريق لايتوقعه عدوه وبعث بقسم كبير من جيشه تحت قيادة الإفشين عن طريق درب الحدث وهو أيضاً غير متوقع . . . على أن يكون اللقاء في سهول أنقرة قبل اقتحامها[3] .

غير أن هدف الحملة من الهجوم على أنقرة ثم عمورية لم يخف على الإمبراطور ولهذا فقد خرج ثيوفيل من القسطنطينية في مايوسنة ٨٢٨م (جمادى الثانية سنة ٢٢٣هـ) إلى دوروليوم حيث يمكن أن يشرف بنفسه على تدعيم عمورية وحاميتها ويحشد فيها ماتحتاجه المدينة من مؤن وزاد وعتاد استعدادا لحصار قد يطول ، وعهد إلى اثيتيوس — وتسمية المصادر الإسلامية « باطس » ولعله ياطس[4] — قائد ثغر أناتوليا (الأناتوليك) بالدفاع عن عمورية التي تعتبر قاعدة الثغر وأهم المدن فيه[5] ، وخطط الإمبراطور

(١) Ibid. p. 263
(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٥ ص ٢٤٧ .
(٣) الطبري : تاريخه ج١٠ ص ٣٣٥ — ٣٣٦ .
(٤) الطبري : تاريخه ج١٠ ص ٣٣٩ ، المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ٤٧٣ .
(٥) فازيلييف : العرب والروم ص ١٣٢ ، Bury: op. cit. p. 263
Ostrogorski: op. cit. p. 185

لمهاجمة قوات المسلمين أثناء تقدمها صوب الشمال ناحية أنقرة ، ولهذا فقد أعد كمينا بموضع على نهر هاليس Halys ، وهو نهر صغير يصب في البحر الأسود في أقصى خرسيون ، وعسكر الإمبراطور هناك منتظرا مفاجأة الجيش الاسلامي الذي اعتقد أنه حتما سيسلك درب قيلقية في طريقه إلى أنقرة دون أن يعلم أن ثمة جيشا آخر راح يجتاز إلى أنقرة مباشرة سالكا درب الحدث بقيادة الإفشين [١] .

غير أن المعتصم أصدر أوامره بالتوقف ، ريثما يقف على مواقع العدو ، وفي نفس الوقت علم الإمبراطور مؤخرا بتقدم جيش الإفشين نحو أنقرة وهنا اضطربت خطط الإمبراطور ، واضطر إلى ترك مكمنه ، وتقدم ليفاجيء الإفشين ويمنعه من التقدم إلى أنقرة ، وحين علم الخليفة — المعتصم بذلك عن طريق الجواسيس والمخبرين حاول أن ينبه الإفشين ويحذره ، إلا أنه لم يوفق في ذلك ، ولهذا فقد **اصطدم الإفشين بالإمبراطور عنـــد دازيمون** Dazimon حيث جرت معركة هامة في ٢٥ شعبان سنة ٢٢٣هـ (٢٢ يوليو سنة ٨٣٨م) [٢] ، وكان الضباب كثيفا والمطر ينهمر بغزارة وأحرز البيزنطيون النصر في البداية غير أن المسلمين ثبتوا وحولوا الهزيمة إلى نصر ، فوقع الإضطراب في صفوف البيزنطيين وهرب الإمبراطور نفسه في حالة سيئة وشاع أنه قد لقى مصرعه [٣] .

وتحاول المصادر البيزنطية والأجنبية تقديم تبرير لهزيمة الإمبراطور في هذه المعركة بأنه اضطر إلى الهرب حينما بلغه نبأ **تآمر الفرس — من الذين** كانوا في جيشه — لتحريك ثورة ضده وتنصيب إمبراطور آخر محله مستغلين إشاعة موته في المعركة ، وهي ذرائع واهية لتبرير مالحق بالإمبراطور من هزيمة ساحقة قرب مدينة أنقرة ، وارتداده بعيدا عنها بدلا من متابعة الدفاع ، **إذ عول على جيشه في عموريه وعهد**

---

(١) Bury: op. cit. p. 264

(٢) Ostrogorski: op. cit. p. 185

Bury: op. cit. pp. 264—5

(٣) ابن الأثير : الكامل ج ٥ ص ٢٤٨ .

إلى ياطس **بالدفاع عنها** وحشد معه عددا من كبار القادة ، وارتد هو بعيدا لايجرؤ على الاقتراب [١] واكتفى بعد المعركة بتجميع فلول جيشه منزلا العقاب بمن ثبت هروبه أثناء القتال ، وأرسل **عدداً من الجنود إلى أنقرة** لتقوية دفاعها وتعزيز الحامية فيها [٢] .

غير أن ذلك لم يجد نفعا ، فقد هرب من في المدينة ، ولجأوا إلى الجبال حين بلغهم نبأ انتصار الإفشين على الامبراطور ، وما راج من أن هذا قد لقى مصرعة في ميدان القتال ، وفي نفس الوقت داهم الجيش القادم من الغرب بقيادة اشناس التركي المدينة فاحتلها دون مقاومة تذكر [٣] ، **ولحق المعتصم والإفشين بأشناس** وأنزل الجميع بالمدينة الخراب والدمار ، وحصدت سيوف المسلمين رقاب من بقى من حاميتها ورجالها ، عل الخليفة يشفى غلة انتقامه ويشفى صدور المسلمين . ويذكر ابن الأثير أنه أثناء تقدم أشناس ناحية أنقرة ، وكان المسلمون يشكون من قلة الزاد والعلوفه أسر أشناس بعض الأسرى فأمر بضرب أعناقهم « حتى بقى منهم شيخ كبير فقال له : ما تنفع بقتلي وأنت وعسكرك في ضيق وهنا قوم **قد هربوا من أنقرة خوفا منكم وهم بالقرب منا ومعهم الطعام والشعير** وغيرهما ، فوجه معى قوما لاسلمهم إليهم وخل سبيلي » [٤] ، وفعلا أرسل أشناس معه بعض الجند فدلهم هذا الشيخ على مخابيء أهل أنقرة بالجبال فدهمهم المسلمون واستولو على مامعهم من زاد وطعام ومؤن وأسروا منهم جماعة من جند الإمبراطور الهاربين [٥] .

وحانت بعد ذلك الساعة التي بر فيها المعتصم بقسمه ، حين أذل ثيوفيل اذلالا لم يحدث مثله قط ، وأجبره على الإذعان التماسا للصفح وطلبا للصلح ، **فقد أرسل الإمبراطور إلى المعتصم مبعوثين يلتمسون في مذلة عقد الصلح عارضين تعهد الإمبراطور**

---

(١) فازيلييف : العرب والروم ص ١٤٢ .

(٢) Bury: op. cit. p. 266

(٣) الطبري : تاريخه ج ١٠ ص ٣٣٨ .

(٤) ابن الأثير : الكامل – ج ٥ ص ٢٤٨ .

(٥) فازيلييف : العرب والروم ص ١٤٣

بإعادة ما تهدم من أبنية زبطرة وإعادة توطين من بقي من أهلها وإطلاق سراح من عنده من أسرى المسلمين وتبلغ المهانة ذروتها حين تعهد الإمبراطور بتسليم الخليفة كل من ارتكب في زبطرة شيئا من أعمال العنف أو القسوة من رجاله[1] . وتصور المصادر البيزنطية حالة الامبراطور عند طلبه الصلح بأن هزيمته على يد جيش واحد من جيوش الخليفة قد تركت أثرا سيئا في نفسه « فانكسرت شجاعته ونسى حملته الظافرة في العام السابق ، وبعث إلى المعتصم رسلا أمرهم بالشرح وبذل الوعود المذلة »[2] ، ويضيف اليعقوبي أن الامبراطور ادعى أن « الذين فعلوا بزبطرة مافعلوا ، تعدو أمري ، وأنا أبنيها بمالي ورجالي وأرد من أخذ من أهلها »[3] . غير أن الخليفة لم يعبأ بتوسلات الامبراطور وهزىء بهذه العروض واتهم الروم بالجبن ولم يأذن لرسل الإمبراطور بالعودة إلا بعد أن تم له فتح عمورية ، وترك الإمبراطور قابعا في دور ليوم ينتظر ما سوف يحل بعمورية من المصير المحتوم[4] .

وبعد أن دمر المعتصم أنقرة تقدم بجيوشه الثلاثة ناحية عمورية جاعلا أشناس التركي على المقدمة وسار هو في القلب ، على حين جعل الإفشين في المؤخرة وجعل بين كل قسم وآخر فرسخين « وأمر كل عسكر أن يكون له ميمنة وميسرة وأمرهم أن يحرقوا فيما بين أنقرة وعمورية ، ففعلوا ذلك حتى وافوا عمورية »[5] وتقدمت الجيوش الثلاثة منزلة الخراب والدمار بكل ما اجتازت به من أراضي الروم حتى وصلوا إلى عمورية بعد سبعة أيام، وألقى المعتصم الحصار على عمورية في أول أغسطس سنة ٨٣٨ ، (أواخر شعبان سنة ٢٢٣هـ) ودار المعتصم حول المدينة وقسمها بين

---

(١) Bury: op. cit. p. 266

(٢) فازيلييف : نفسه ص ١٤٣ .

(٣) اليعقوبي : تاريخه ج٢ ص ٤٧٦ .

(٤) الطبري : تاريخه ج١٠ ص ٢٤٣ ، فازيلييف : العرب والروم ص ١٤٣ .
Bury: op. cit. p. 267

(٥) الطبري : نفسه ج١٠ ص ٣٣٨ ، ابن الأثير : نفسه ج٥ ص ٢٤٩ .

قادته وجعل لكل واحد منهم عددا من الأبراج على قدر أصحابه وبحسب عدد جنده فصار لكل قائد منهم مابين البرجين إلى عشرين برجا[1] .

ويشير المؤرخون إلى أن المعتصم استفاد من **رجل كان قد أسره الروم** وتنصر — أو تظاهر بالتنصر — لكنه حين رأى الجيش الاسلامي خرج من المدينة وقابل المعتصم وأخبره عن موضع ضعف في سور عمورية بنى ظاهره وأخل باطنه[2] فأمر الخليفة بضرب خيمته عنده ، وأخذت المجانيق تضرب في ذلك الموضع حتى تصدع جزء من السور ، وعندئذ كتب قائد الحامية البيزنطية وبطريق عمورية « ياطس » إلى الإمبراطور يعلمه بأمر السور ويعلمه أيضا بأنهم عازمون على الخروج ليلا ليحملوا على المسلمين مهما تكن النتيجة بدلا من الانتظار داخل المدينة ، ومن حسن الحظ أيضاً أن وقع الرسل في يد المسلمين ووقف المعتصم على حالة المدينة وعلى عزم ياطس الخروج « فأمر المعتصم بالاحتياط في الحراسة ليلا ونهاراً » وجد المسلمون في ضرب السور بالمنجنيق في المكان المتصدع « حتى انهدم السور ما بين برجين من ذلك الموضع »[3] .

وكان المعتصم قد أمر أن يطم خندق عمورية بجلود الغنم المملوءة بالرمل لتجتازه دبابات كبيرة تسع كل واحدة منها عشرة رجال لتصل إلى السور ، وعلى الرغم من أن بعضها قد علق بتلك الجلود في منتصف الخندق وتعطل عن التقدم بما يعنيه ذلك من أخطار بالنسبة لمن فيها ، فإن المسلمين كرروا المحاولات للوصول إلى السور[4] ، وأظهر أشناس التركي ورجاله في هذه المرحلة من الحرب شجاعة فائقة وأبلوا بلاء حسنا وتقدم الإفشين ورجاله أيضا بينما راح المعتصم يشرف على سير القتال من ذلك

---

(١) الطبري : نفسه ج١٠ ص ٣٣٩ ، ابن الأثير : نفسه ج٥ ص ٢٤٩ .
(٢) ابن خلدون : العبر ج ٣ ص ٥٦٠ (بيروت سنة ١٩٦٦) .
(٣) الطبري : نفسه ج١٠ ص ٣٣٩ ، ابن الأثير : نفسه ج٥ ص ٢٤٩ .
(٤) ابن الأثير : الكامل ج ٥ ص ٢٤٩ .

الجزء من السور . ومضى اليوم الأول واليوم الثاني واستشهد الكثير من المسلمين وكذلك قتل الكثير من الروم ؛ لكن القتال بدأ يتحول لصالح المسلمين ابتداء من اليوم الثاني ، وفي اليوم الثالث أبدى المسلمون شجاعة فائقة « وقاتلوا وأحسنوا واتسع لهم هدم السور ، فلم تزل الحرب كذلك حتى كثرت الجراحات في الروم » وبدأت الدائرة تدور عليهم ، وأصبح استسلام المدينة أمرا لامفر منه[1] .

وتشير المصادر العربية منها والبيزنطية إلى الحادثة التي عجلت بسقوط المدينة في يد المعتصم ، فتذكر أن بطارقة الروم كانوا قد اقتسموا — فيما بينهم أبراج السور يدافع كل واحد عما خصص له ، وكان أسوأهم حظا ذلك الذي وكل إليه الدفاع عن موضع الضعف في سور عمورية والأبراج في تلك المنطقة ويسميه كل من الطبري وابن الأثير « **وندوا** »[2] . وعلى الرغم من ذلك فقد تحمل هذا القائد وحده عبء الدفاع وصد هجمات المسلمين المتتالية دون معاونة من بقية القادة والبطارقة ، غير أنه حين انكشف السور وتصدع جانب منه وأصبح دخول المسلمين إلى المدينة محتما ، بدا له أن يطلب معونة عاجلة من بقية القادة وحذرهم إن لم يفعلوا فسوف تسقط المدينة بين لحظة وأخرى . غير أنه لم يتلق معونة من أحد منهم ، ولهذا فقد بدا له أن يخرج هو وأصحابه إلى المعتصم « يسألوه الأمان على الذرية »[3] ويسلموا إليه الحصن بما فيه ، وفي نفس الوقت كان المسلمون قد تقدموا إلى مكان الصدع وأشرفوا على الدخول حين أمر هذا البطريق جنده بالكف عن القتال[4] ، وحين خرج البطريق إلى المعتصم كان ، المسلمون لايزالون يتقدمون حتى قاربوا السور ، ولم يكن خروج البطريق أو احجامه يؤخر أو يقدم في هذه الأحداث أو يمنع المدينة من السقوط في أيدي المسلمين .

---

(١) الطبري : تاريخه ج ١٠ ص ٣٤٠ ، ابن الأثير : نفسه ج ٥ ص ٢٥٠ .

(٢) الطبري : نفسه ج ١٠ ص ٣٤١ ، ابن الأثير : نفسه ج ٥ ص ٢٥٠ .

(٣) الطبري : نفسه ج ١٠ ص ٣٤١ ، ابن الأثير : نفسه ج ٥ ص ٢٥٠ .

Bury: op. cit. p. 269

(٤) المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ٤٧٣ .

ونود أن نشير هنا إلى قضية هامة أثارتها المصادر البيزنطية وتبناها المؤرخ فازيلييف مؤداها أنه بينما كان القائد البيزنطي يفاوض المعتصم ، انتهز المسلمون الفرصة ودخلوا إلى عمورية بطريق الغدر[1] ، غير أنه ينبغي الا تمر هذه الاشارة دون مناقشة أو توضيح بما يفند هذه المزاعم لوضع الأمور في نصابها ، فلم يكن خروج القائد البيزنطي للقاء المعتصم إلا بعد أن أيقن بسقوط المدينة مع عجزه عن الدفاع عما تصدع من سورها وفقده كل أمل في نجدة أو معونة من بقية القادة وعلى رأسهم ياطس[2] ، ولهذا فقد قرر القائد الخروج عله ينجح في الحصول لقومه على أمان وعهد بحفظ أرواحهم وأموالهم ، فإن وفق في ذلك فقد أدى خدمة لبلاده ، وان لم يوفق فلن يخسر شيئا لأن سقوط المدينة غدا أمرا محتما . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى ليس هناك أية اشارة حتى في المصادر البيزنطية ذاتها إلى أن المعتصم قد أعطى وعدا أو عهدا بأمان لذلك القائد ، أو حتى إشارة إلى أن مفاوضاته مع المعتصم قد أوقفت القتال من جانب المسلمين بل استمر هؤلاء في التقدم ناحية الثغرة ، فقد أشار كل من الطبري وابن الأثير وغيره من المؤرخين القدامى إلى أن وصول القائد البيزنطي إلى المعتصم حدث في نفس الوقت الذي وصل فيه المسلمون إلى السور فانسابوا إلى داخل المدينة[3] . أما القول بأن الروم قد كفوا عن القتال انتظارا لأمر سيدهم المفاوض فليس هذا خطأ المسلمين وإنما هو خطأ الروم ، وكان المفروض أن يستمروا في القتال إإلى أن يأتيهم الأمر بالتوقف ، ولهذا فليس ثمة غدر أو خداع في هذه القضية . ولقد كان المعتصم موقنا بسقوط عمورية بعد أن تصدع جانب من سورها وأحجم القادة فيها عن التعرض لهجمات المسلمين في هذا الموضع وتشبث كل واحد منهم بالأجزاء القوية في موضعه ، وبعد أن توارى الإمبراطور نفسه ولم يحاول

---

(١) فازيلييف : العرب والروم ص ١٤٩ .
(٢) الطبري : تاريخه ج ١٠ ص ٣٤١ ، المسعودي : مروج الذهب ج٣ ص ٤٧٣ .
ابن الأثير : الكامل ج ٥ ص ٢٤٩ .
(٣) ابن الأثير : نفسه ج ٥ ص ٢٥٠ .
الطبري : نفسه ج ١٠ ص ٣٤١ .

منع المسلمين من الهجوم على المدينة أو يحاول إجبارهم على فك الحصار عنها[1] ، كل ذلك أقنع المعتصم بأن سقوط عمورية كان أمرا مؤكدا ، وليس من المعقول أن يمنح المفاوض البيزنطي عهدا وأمانا نظير تسليم مدينة أوشكت على السقوط بل بدأت تسقط فعلا ، فإن فعل ذلك فقد اشترى صفقة خاسرة تماما ولا يعقل أن يقع المعتصم القائد المجرب في مثل هذا الخطأ .

ولا مجال لمقارنة مايدعي على المسلمين من خداع في دخول عمورية . بما فعله تيوفيل بأهل زبطرة من غدر ونقض للعهود ومذابح بشرية رهيبة وتشريد في الثغور الجزرية في زبطرة وسميساط وملطية وغيرها من القرى الاسلامية الآمنة قبل ذلك بأقل من عام واحد[2] .

وهكذا تم فتح عمورية في رمضان سنة ٢٢٣هـ (أغسطس سنة ٨٣٨م) ، وانساب المسلمون إلى داخلها يقتلون ويأسرون « وسارت طائفة كبيرة من الروم إلى كنيسة كبيرة فأحرقها المسلمون عليهم فهلكوا كلهم » وعاد الخليفة إلى الانتقام من الروم في عمورية لما حدث لأهل زبطرة ، فحصدت سيوف المسلمين رقاب أهلها وأنزلوا الخراب والدمار بالمدينة ، ووقع في أيديهم عدد كبير من الأسرى فضلا عن الغنائم الوفيرة[3] ، **وقبض المسلمون على ياطس** بعد أن ظل متحصنا بأحد الأبراج « فركب المعتصم ووقف مقابل ناطس فقيل له : ياناطس هذا أمير المؤمنين فظهر من البرج وعليه سيف فنحاه عنه ونزل حتى وقف بين يديه فضربه سوطا » ، وبلغ من كثرة الغنائم أن أمر المعتصم « ألا ينادي على السبي إلا ثلاثة أصوات ليتروج البيع . . . وكان ينادي على الرقيق خمسة وعشرة عشرة والمتاع الكثير جملة

---

(١) Bury: op. cit. p. 267

(٢) اليعقوبي : تاريخه ج ٢ ص٤٧٥ ، الطبري : تاريخه ج١٠ ص ٣٣٤ ، المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ٤٧٢ .

(٣) Bury: op. cit. p. 271

واحدة » ، وأمر المعتصم أن يعزل منهم أهل الشرف ونقل من سواهم ، وأمر ببيع الغنائم في عدة مواضع ، وكان لا ينادي على شيء أكثر من ثلاثة أصوات ثم يوجب البيع طلبا للسرعة[١] .

وفي المصادر الإسلامية تفاصيل كثيرة عن الانتقام الرهيب الذي أحدثه المسلمون بعمورية فقد أمر المعتصم بهدم وإحراق عمورية فهدمت أسوارها وأبراجها وأحرقت معالمها[٢] . ويذكر ميخائيل السرياني أن الإمبراطور حاول خلال هذه الأحداث أن يثأر لنفسه ويجبر المعتصم على سحب جيوشه من عمورية فأرسل سفنه الحربية للإغارة على مدينة أنطاكية التابعة للخلافة ، ونزلت هذه الحملة على الميناء وقامت بنهب التجار وأسرت بعض الأفراد ، لكن هذه الغارة فيما يبدو لم تكن ذات تأثير على مجريات الأمور ، بل كانت ضربة جانبية لاقيمة لها[٣] .

ولما فشل ثيوفيل في محاولته عاد من جديد إلى اتباع أسلوب الملاطفة والاستعطاف طلباً للصلح ورغبة في افتداء الأسرى البيزنطيين من كبار رجاله وأقاربه وخاصته ، فبعث إلى الخليفة أحد معاونيه ويدعى باسيل قائد ثغر خرسيون ومعه الهدايا ورسالة تتضمن أسفه لما حل بزبطرة من الدمار ، ويلتمس من الخليفة إطلاق سراح ياطس مقابل إطلاق سراح من عنده من أسرى المسلمين فضلا عن استعداده لدفع مبلغ كبير من المال ، إلا أن الخليفة رفض هذا الطلب أيضاً وفشل مشروع هذا الافتداء[٤] .

ويبدو أن النصر السريع الذي أحرزه المعتصم في أنقرة وعمورية دفعه إلى التفكير في غزو القسطنطينية لاسيما وأن سقوط عمورية فتح الطريق إلى تلك العاصمة مباشرة كما أن التفكير في غزو القسطنطينية لم يكن أمرا جديدا في سياسة العباسيين في هذه

---

(١) ابن الأثير : الكامل ج ٥ ص ٢٥٠ .
(٢) راجع الطبري : تاريخ ج١٠ ص ٣٤٢ وابن الأثير : نفس ج٥ ص ٢٥٠ .
(٣) أنظر شاكر مصطفى : نفس المرجع ج ٢ ص ٥٦٧ .
(٤) فازيلييف : العرب والروم ص ١٥٥ . ، Bury: op. cit. p. 273

الفترة ، فقد فكر فيه المأمون أيضاً لكن الموت لم يمهله لتنفيذه ، ويبدو أن انتصارات المعتصم في قلب آسيا الصغرى أعادت ذلك المشروع إلى الفكر من جديد وبعثت فيه الحياة ثانية . حقيقة لم يكن المعتصم قد فكر منذ بداية الحملة في أمر كهذا ولم يكن واردا في خططه ، ولكن الأحداث قادته إلى ذلك فتطلع إلى فتح العاصمة ذاتها لتكون الضربة قاضية بالنسبة للامبراطور البيزنطي وليست مجرد عملية انتقام سريع لما حدث باحدى المدن الاسلامية ، غير أن هذا المشروع قدر له في هذه المرة أيضاً أن يتوارى أو أن يرجأ من جديد[١] .

إذ يشير المؤرخون إلى **مؤامرة في جيش المعتصم** كانت سببا في انصرافه عن حرب بيزنطة وسحب جيوشه من آسيا الصغرى والعودة إلى عاصمته وإرجاء فتح القسطنطينية إلى وقت آخر ، وكانت تلك المؤامرة ترمي إلى التخلص منه ومن الأتراك الذين قربهم واستكثر منهم في الجيش ، ومبايعة **العباس بن المأمون** وعندما اكتشف المعتصم هذه المؤامرة نكل بالمتآمرين أبشع تنكيل وألقى القبض على العباس نفسه وزج به في السجن[٢] ، واضطر للعودة إلى عاصمته سريعا ، هذا هو السبب الذي يقدمه المؤرخون المسلمون لانصراف المعتصم وعدم مواصلة الجهود في آسيا الصغرى أو التقدم لاقتحام القسطنطينية ، **لكن يبدو أن المعتصم أدرك بالإضافة إلى ذلك أن جيوشه البرية لن تمكنه وحدها من اقتحام القسطنطينية إذ لابد له من أسطول بحري يحكم الحصار حولها من جهة البحر** إلى جانب جهود قواته في البر ، واقتنع أن مدينة في مثل حصانة القسطنطينية لايكفي لفتحها جيش بري فقط وإنما تحتاج إلى أسطول بحري أيضا . لهذا قرر الانسحاب إلى العراق دون مواصلة طريقه إلى القسطنطينية ، وأرجأ المشروع إلى عام آخر حتى تكتمل له الاستعدادات ويتم تجهيز الأسطول البحري[٣] .

---

(١) Bury: op. cit. p. 274

(٢) الطبري : تاريخه ج ١٠ ص ٣٤٧ ، المسعودي : مروج ج ٣ ص ٤٧٣
ابن الأثير : نفسه ج ٥ ص ٢٥١ .

(٣) Bury: op. cit. p. 274

غير أن ثيوفيل أيقن أن ارتداد المعتصم ليس إلا مقدمة للاستعداد لمعاودة الكرة من جديد حينما تسنح الظروف وتتهيأ الفرصة ، كما أيقن بعجز بيزنطة عن مواجهة القوى الإسلامية خاصة وقد منيت القوات البيزنطية بالهزائم في الشرق وفي الغرب على حد سواء ، فقد واصل الأغالبة تقدمهم في جزيرة صقلية وراحوا يفرضون سلطانهم عليها شيئا فشيئا[1] ، بينما فشلت جهود بيزنطة في وقف تقدم الأندلسيين في كريت ومنعهم من السيطرة على أنحاء الجزيرة وإخضاع سكانها[2] ، وإذا أضفنا لذلك مالقيته بيزنطة في آسيا الصغرى من هزائم على يد الخلافة العباسية تأكدنا أن الإمبراطور كان حتما يفكر في الخروج من هذه المحنة ، لاسيما وأن احتمال استعانة المعتصم بأسطول الأغالبة من شمال أفريقيا وأسطول الأندلسيين من كريت كان أمرا واردا لشن الهجوم على القسطنطينية[3] .

ولهذا فقد عول ثيوفيل على التماس المساعدة من الدول الأخرى في الغرب فبعث سفارة إلى لويس التقي عاهل الفرنجة وإمبراطور الغرب يحثه على القيام بعمل عسكري ضد المسلمين في الشرق بغزو مصر أو بلاد الشام ليشغل الخلافة العباسية عن بيزنطة ويضعف قوة المعتصم ويبعثرها ، وتشير الدلائل إلى أن تلك السفارة قد لقيت ترحيباً في الغرب الأوربي (في يونيو سنة ٨٣٩م) ، إلا أنها لم تنجح في استثارة لويس التقى أو تتسبب في قيامه بعمل عسكري في الشرق[4] ، وخاصة أنه قد شغل في هذه المرحلة بالنزاع المستفحل بين أبنائه في داخل دولة الفرنجة والحروب المستعرة بينهم للفوز بالأقسام الهامة في الإمبراطورية الكارولنجية[5] ، كما أرسل ثيوفيل إلى دوق البندقية وهي إحدى القوى البحرية الهامة في حوض البحر المتوسط ، ضد الأغالبة وأهل كريت

---

(١) Ostrogorski: op. cit. p. 185
(٢) Bury: op. cit. p. 289
(٣) Lbid. p. 273
(٤) Lbid. p. 273
(٥) Camb. Med. Hist. V. 3, pp. 10—11
Oman: The Dark Ager, p. 409

من المسلمين ليشغل هؤلاء عن التحالف مع العباسيين ، كما **سعى ثيوفيل إلى إقامة محور سياسي مع أمير الأندلس الأموي عبد الرحمن الثاني** محاولا استغلال العداء المعروف بين أموي الأندلس والعباسيين إلا أن هذه المساعي لقيت فشلا ذريعا ، فلم يكن بوسع ذلك الأمير أن يوجه أي مساعدة عسكرية لبيزنطة ، بينما كانت بلاده في حالة غاية في السوء ، ولهذا فقد اكتفى عبد الرحمن الثاني بابداء التمنيات الطيبة للامبراطور وبذل الوعود له بتقديم مساعدة بحرية حينما تهدأ الأحوال في بلاده ، وبطبيعة الحال لم يحدث أن قدمت هذه المساعدة ، وفشلت هذه المساعي في إخراج الإمبراطور من محنته[١] .

وفي نفس الوقت لم ينثن المعتصم عن عزمه في الهجوم على القسطيطينية فأعد أسطولا تألف من نحو أربعمائة سفينة جرى تجهيزها في مواني الشام ومصر ، وأبحرت هذه السفن من مواني الشام في ربيع الأول من سنة ٢٢٧هـ (٨٤٢م) ، غير أن المعتصم توفى في ذلك الوقت وفي نفس الشهر توفى أيضا الإمبراطور ثيوفيل ولم يقدر لأسطول المعتصم النجاح فيما خرج من أجله ، فقد صادفته عاصفة عاتية حطمته على صخور بعض الجزر ، ولم ينج من هذا الأسطول سوى بضع سفن عادت إلى شواطي الشام في حالة سيئة[٢] ، وعلى هذه الصورة انتهت هذه الحلقة الخطيرة في العلاقات بين بيزنطة على عهد إمبراطورها ثيوفيل والخلافة العباسية على عهد خليفتيها المأمون والمعتصم .

وعلى الرغم مما أحدثته حروب المعتصم في آسيا الصغرى وانتصاراته فيها على قوات ثيوفيل ودخول المسلمين أنقرة وعمورية من شهرة للمعتصم ، ومادرج عليه الأدباء والشعراء والمؤرخون من الاشادة بانتصار المعتصم في عمورية وإضفاء صفة الفتح على هذه الانتصارات ، إلا أن فريقا من الكتاب المحدثين يرفض ذلك تماما

---

(١) Bry: op. cit. p. 273

(٢) ابن الأثير : الكامل ج ٥ ص ٢٦٥ . وانظر : Bury: op. cit. p. 272

ولا يؤيد تسميه هذا النصر بالفتح ، أو يجاري القدامى في تعظيمهم لانتصارات المعتصم في آسيا الصغرى ، ويذهبون إلى القول ، بأن ثمة فارقا أساسياً بين فتوح العهد الأموي وبين هذه الحملة التي لم يفكر المعتصم في استغلالها لتوسيع رقعة الدولة ، إذ لم يتحول انتصار عمورية إلى مشروع لإنهاء الدولة البيزنطية أو حتى تقليم أظفارها في آسيا الصغرى ، أي أنه لم يتحول إلى مشروع فتح أو ضم ، إذ لم يفكر المعتصم في الاحتفاظ بالمناطق التي دخلها وضمها إلى حظيرة الخلافة العباسية ، فلقد أعاد المعتصم هذه الجهات المفتوحة إلى بيزنطة برغم كل مابذل من أجلها من الجهود وما سفك فيها من الدماء وما صرف من أجلها من أموال ، وأرادها — على حد هذا القول — أن تكون مجرد « عملية حدود » لافتحا وتوسعا وضما ، ولهذا فقد تقلص مفهومها لتصبح هجوما دفاعيا محدود الغرض والأثر ، أو بعبارة أخرى جعلها حملة تأديبية كبيرة ، ولهذا فقد جاءت عملية عمورية واحدة من أندر المواقف الكاشفة لمدى الطموح العباسي في هذا المجال[1] .

وليس من شك في أن هذه الحملة فعلا قد أثارت كثيراً من التساؤلات لدي الكتاب والمؤرخين ، فلماذا لم يحتفظ المعتصم بما فتح من أراضي بيزنطية ويضمه إلى أملاك الخلافة العباسية ولو اضطر إلى بذل مزيد من الجهد ؟ ولماذا قبل العودة إلى بلاده تاركا هذه الأراضي التي رويت بدماء جنوده دون الاستفادة من انتصاراته فيها ؟ ولماذا لم يطالب بيزنطة حتى بدفع جزية سنوية كما حدث على عهد الرشيد حين أجبر كل من أيرين ونقفور الأول على دفع الجزية ؟ كل ذلك يحتاج فعلا إلى إجابات .

ويبدو لنا أن العلة تكمن في قلب الخلافة العباسية ذاتها خاصة وقد كانت على أعتاب مرحلة جديدة في تاريخها بتقريب الأتراك والاستكثار منهم وتقليدهم الوظائف الهامة في الدولة وفي الجيش مع ما صاحب ذلك من غليان في جوف الخلافة العباسية

(١) أنظر شاكر مصطفى : المرجع السابق ج ٢ ص ٥٧٠ .

ورغبة في انهاء هذا الوضع الجديد والعودة إلى ما كان جاريا قبل ذلك . ويحدثنا المؤرخون القدامى عن نوازع الثورة والفوران بين رجال الخلافة وقادة الجيش والرغبة الكامنة في القضاء على المعتصم نفسه وإحلال العباس بن المأمون محله ، والقضاء على كبار القادة الأتراك ورجال المعتصم المقربين ، الذين أحدثوا ضيقا في نفوس بقية القادة بما كان فيهم من عنف وبداوة لم يألفها الناس والقادة قبل ذلك[1] . وفي ظل هذه الظروف لم يكن المعتصم يجرؤ على فتح جهات جديدة وضم أراضي جديدة تحتاج منه إلى جهود مضنية للاحتفاظ بها في الوقت الذي تربص به أعداؤه في البلاط وفي الجيش الدوائر ، كما لم يكن راغبا في ترك جنوده الأتراك لحفظ هذه البلاد التي ستنشط بيزنطة حتما في محاولة استردادها بالقوة ، ويحرم من معاونة قادته ومؤازرتهم له في العراق ذاتها . ولهذا لم يكن ثمة تفكير في استغلال الفرصة وضم هذه الأقاليم بكل ما تتطلبه من جهد وطاقة وأموال ، فكانت عودته منها والاكتفاء بتلقين ثيوفيل هذا الدرس القاسي وجعله يعود إلى حجمه الطبيعي ، ولم يكن يهم المعتصم بعد ذلك أن يتقلص هذا العمل إلى درجة العمل التأديبي ويتباعد عن الفتح والانتصار أو يظل يحتفظ بمعنى الفتح والانتصار كما فهمه الأدباء والشعراء .

وهكذا أسهمت الظروف الداخلية في جوف الخلافة العباسية فيما اتخذه المعتصم من اتجاهات في سياسته الخارجية لاسيما تجاه بيزنطة ، فأصبح الهدف الأساسي هو **متابعة سياسة الرشيد والمأمون في إلزام بيزنطة سياسة الدفاع** وتلقيمها حجرا كلما فتحت فاها أو حاولت أن تتجرأ لتغيير الأوضاع لصالحها في أطراف آسيا الصغرى وفي منطقة الحدود بينها وبين الدولة الاسلامية ، مع ماتسمح به هذه السياسة للمعتصم من التفرغ لاتمام التغييرات الأساسية في قلب الخلافة — والعمل على التمكين للعنصر التركي

---

(٢) راجع الطبري : تاريخه ج ١٠ ص ٣٤٤ — ٣٤٥ .
المسعودي : مروج الذهب ج ٣ ص ٤٧٣ .
ابن الأثير : الكامل ج ٥ ص ٢٥٠ — ٢٥١ .

الجديد وزيادة الاعتماد عليه داخليا وخارجيا ، وإقصاء بقية العناصر أو التقليل من شأنها في الحقبة الجديدة .

وفي النهاية يحق لنا أن نحاول تقويم سياسة الإمبراطور البيزنطي ثيوفيل تجاه العباسيين ، ونوضح مسار هذه السياسة واتجاهاتها . الحقيقة أن هذا الإمبراطور يعتبر أكثر أباطرة بيزنطة غرابة بل أكثرهم إثارة للحيرة ، فبينما شغف بالثقافة العربية والفكر الإسلامي والحضارة الاسلامية ، وأغرم بسياسة الرشيد وحرصه على العدل بين الرعية[1] ، وتفقده أحوال البلاد للتأكد من حسن سياسة عماله وموظفيه بين الناس وحاول تقليد هذا الخليفة والسير على منواله ، أقول بينما فعل كل ذلك فانه لم يتردد في شن الحرب الضارية على الخلافة العباسية وإحداث المذابح البشرية الرهيبة بين سكان القرى الآمنة — في أطراف البلاد الاسلامية ، وبينما تطلع إلى إحراز انتصارات ترفعه مقاما عليا في الإمبراطورية يغدو بفضلها بطلا في القسطنطينية ملبسا حروبه ثوب الفخار والمجد ، إذا به يقف موقف الذليل يلتمس الصفح والغفران من المعتصم ويعرض عليه شروطا مهينة ليحصل على صلح مهين حين تأكد من تفوق خصمه وقوة بأسه وسطوته .

وربما كان أقرب إلى الحقيقة القول بأن هذا الإمبراطور يجسم مأساة بيزنطة في تلك الحقبة ويلبورها تماما ، إذ يلتقي في شخصه ما اعترى بيزنطة من عوامل القلق والاضطراب ، منذ أن تفجرت فيها مشكلة مناهضة عبادة الصور والأيقونات وتأرجح أباطرة بيزنطة بين مناهض ومؤيد لهذه العبادة ، وما صاحب كل ذلك من قلق وفوضى وانقسام في الشئون الدينية والسياسة مع إلحاح المشاكل الخارجية على بيزنطة ممثلة في الخلافة العباسية في الشرق والمسلمون في الغرب في صقلية وكريت وشمال إفريقية ، والقبائل الضاربة فيما وراء الدانوب والأمم الطامعة في البلقان من

---

(١) Ostrogorski: op. cit. p. 183
Bury: op. cit. pp. 132—3

الآفار والبلغار والصقالبة ، كل ذلك ألقى بظله على بيزنطة وجعلها تبدو قلقة مضطربة ، فكان ثيوفيل تجسيما لكل هذه الاضطرابات .

وفي الناحية الاخرى كانت الخلافة العباسية تمر بفترة حرجة في تاريخها بل أنها كانت على أعتاب مرحلة دقيقة في حياتها السياسية ، بعد أن تقدم العنصر الفارسي في الدولة على عهد المأمون ، ثم مالبث أن تراجع أمام المد التركي على عهد المعتصم وفي كلتا الحالتين لم تستطع الخلافة العباسية أن تولى أمر بيزنطة ماينبغي له من اهتمام أو تضع العلاقة مع هذه الامبراطورية في مكانها الصحيح وتتابع عملية تقليم أظفارها وضم ما تستطيع ضمه من أملاكها وإضفاء صفة الفتح والضم على ما اتيح لها أن تفتحه فعلا بدلا من أن تسارع بإخلاء ما استولت عليه وسحب جيوشها والعودة إلى العراق وجعل أعمالها العسكرية ضد بيزنطة تتقلص إلى مجرد ردود فعـل سريعة وانتقام محدود تأكيدا للتفوق العسكري لاأكثر من ذلك .